

تنزيل القرآن الكريم على الواقع من خلال تفعيل السنن الكونية، سنّة التكامل نموذجا

أسماء هلال

crescent.assma@yahoo.com

جامعة الزيتونة، تونس

الملخص: لما كان " الإنسان في الكون مخلوق مثله، وجزء منه وتركيبه من طبيعته، وحياته من وجوده" (عبد العزيز المجدوب : أفعال العباد في القرآن الكريم: ، دار سحنون، ط ١، ١٤٩٢هـ - ٢٠٠٨م، ٦١)، فهو، إذن، ثمرة الكون اللطيفة وفهرسته المصغرة، فكان لزاما عليه الانسجام مع السنن الكونية التي أودعها الله في ملكه، والعمل بمقتضاها، حتى يحقق مراد الله من خلقه، فيكون عبدا خالصا لله ياتمر بأوامره وينتهي عن نواهيه، وهذا لا يكون إلا بإحياء روح القرآن الكريم وحسن تنزيله على الواقع، مما يفرض علينا تطوير آليات ومناهج البحث لفهم مراد الله من كلامه مسايرة لمستجدات العصر واستجابة لمطالباته الفكرية والحضارية، فتيين ان اعتماد المنهج السنني لتحليل الوقائع والأحداث كفيل بإعادة صلة الوصل بين الكتاب المسطور والكون المنظور وحلا لأغلب لإشكالات الواقع المعاصر تحقيقا لمبدأ التعايش السلمي. إن الحديث عن السنن الإلهية حديث قديم وجديد ومتجدد، ذلك بأن عالم الشهادة محكوم بشبكة من العلاقات البيئية الخاضعة للسنن الكونية التي ثبتها الله في هذا الوجود وثبت الوجود بها، وتعدّ سنّة التكامل من بين أهم السنن الإلهية المرتبطة بفعل الإنسان وأثره في الحياة، والتي بالنظر في مقتضياتها وحسن تفعيلها نعيد بناء الأمة الإسلامية على أسس ودعائم متينة، لذا سنتناول بالدرس والتحليل سورة العصر، بوصفها مثالا قرآنيا تطبيقيا على ضرورة فقه سنّة التكامل وأنّ في إعادة تفعيل هذه السنّة إحياء لروح الدين وتحقيق لنهضة هذه الأمة الإسلامية وتقوية علاقاتها البيئية.

الكلمات المفتاحية: فقه التنزيل، التكامل، السنن

المقدمة

ولمّا كان القرآن منهجا لحياتنا وكانت الحياة في تطوّر مستمرّ، كان من الطبيعي أن تتطوّر المناهج تبعاً لتطوّرات الحياة، ولمّا كانت الحاجة ملحةً لمزيد البحث في الأسباب الحائلة دون نهضة هذه الأمة وبعدها عن الاحتكام لكتاب ربها في صغير الأمر وكبيره، أردت أن أتقدّم بهذه الورقة البحثية بغية تقديم بعض الحلول العملية في الغرض، فوقع اختياري على موضوع وضعت له عنوان "تنزيل القرآن الكريم على الواقع من خلال تفعيل السنن الكونية، سنّة التكامل نموذجاً"، لما لهذا الموضوع من أهميّة بالغة نتبيّن عناصره فيما يلي:

الأهميّة: إنّ اعتماد مقارنة منهجية معاصرة، "المنهج السنني" تخرجنا من ركود الواقع إلى الحراك العلمي المفضي إلى تطوير منهجية دراسة المعاني القرآنية لبلوغ درجة الفهم والتدقيق، في مرحلة من مراحل تطوّر الفكر البشري.

كما تسلّط هذه الدراسة الضوء على الحمولة المفاهيمية التي تكتنزها ألفاظ القرآن، ذلك بأنّ هذه الألفاظ بحكم قرآنيّتها تمتلك قدرة تجميعية وتكثيفية، وأنّ بينها من الوشائج والتكامل، ما يجعل كلّ مفهوم يستمدّ من المفهوم الآخر قليلاً أو كثيراً، فكيفنعكس هذا التكامل المتأصل في الكتاب المسطور إلى واقع نعيشه في هذا الكون المنظور.

الأهداف: نأمل من خلال هذه الورقة الإسهام في تحديث الدراسات الإسلامية من خلال تفعيل الجانب التطبيقي الذي يرتقي بالواقع الإنساني، وتبسيط الضوء على سنّة التكامل التي من شأنها أن تعالج الكثير من الإشكاليات في المجتمع الإسلامي الراهن.

الإشكالية: كيف السبيل إلى تفعيل القوانين القرآنية، بآليات معاصرة تجمع بين التأصيل والتجديد، بغية حسن تنزيل معاني القرآن في الأفهام والتحرّر من سطوة الجانب النظري في القراءات القرآنية، من خلال إحياء سنّة إلهية مغمورة مثل سنّة التكامل؟

المنهجية: سلكت منهج الاستقراء والتحليل لمعاني الآيات بالعودة أساساً إلى كتب التفسير واستنباط الحيط الناظم بين المعاني للخروج برؤية قرآنية متكاملة لقضية المدروسة. وبناء على ما تقدّم تراءى لي أن تتوزّع مباحث هذه الدراسة بعد المقدمة إلى

مبحثين أساسيين أروم في المبحث الأول التعريف بالسّن الكونيّة في القرآن الكريم، وأهميّة اعتماد المنهج السّني لحسن تنزيل القرآن على الواقع، وخصّصت المبحث الثاني لبيان تطبيقات سنّة التّكامل على الواقع من خلال سورة العصر، ثمّ ختمت هذه الورقة بأهمّ النتائج وبعض التوصيات.

ختاماً، نأمل من خلال هذه الدّراسة أن تفتح أمامنا معايير وآليات جديدة تعيننا على استثمار ما تكتنزه المعاني القرآنيّة من حلول لإشكالات الإنسان القيمية والمعيشية بأسلوب ميسر ودقيق.

شاءت حكمة المولى عزّ وجلّ أن يقوم هذا الكون على التّباين والتّفاوت في كلّ شيء وهذا ينسحب على كلّ الكونيّات بما فيها الإنسان، فالناس تتفاوت في الطّباع والأفكار والمدارك والقوى، فينشأ بناء على ذلك الحراك الطّبيعي في الكون.

وعلى الرّغم من الكمّ الهائل من الآيات القرآنيّة التي تحدّثت عن السّن الإلهية، إلّا أنّها لا تخرج عن صنفين: آيات آفاقية وآيات أنفسية، فسّن الله تحكّم أنظمة الكون الدّقيقة والعظيمة كما تحكّم أنظمة النّاس الكسبيّة والفطريّة على مستوى الفرد والجماعات.

تعريف السّن الكونيّة ودور المنهج السّني في تفعيل المعاني القرآنيّة

أفرد القرآن الكريم مساحات تعبيرية واسعة للحديث عن فقه السّن الإلهية، بقصد إرساء القواعد المنهجية التي تنظّم حياة الإنسان، وحفاظاً على صلاح العمران البشري، وإزالة الفساد في الأرض، فما المقصود بداية بالسّن الكونيّة.

تعريف السّن الكونيّة

لقد وردت لفظة "السّنّة" باشتقاقاتها المختلفة في القرآن الكريم ١٦ مرّة، في ١٠ سور (٥ مكّية، وه مدنية)، ومن اللّطائف اللّغوية لها أنّها وردت في بعض المواضع بالتّاء المفتوحة، مثل قوله تعالى: ﴿فهل ينظرون إلّا سنّت الأوّلين، ولن تجد لسنّت الله تديلاً، ولن تجد لسنّت الله تحويلاً﴾ [فاطر: ٤٣]، وهذا متعلّق بمسار وطبيعة حركة السّنّة، وظهور تجلّياتها في الوجود كما أشار إلى ذلك بعض المفسّرين .

وقد عرّف العلماء هذه السنن الإلهية بتعريفات متباينة من حيث العموم والخصوص، لعلّ التعريف الجامع بينها، أنّها "أقدار الله تعالى وعهوده الثابتة ووعوده الحقّة وكلماته الثامّات، التي لا تبدل لها ولا تحوّل يعترها ولا تغيير يشملها، ولا تحابي أحدًا مؤمنًا كان أو كافرًا، وتسري على جميع المكوّنات" (رشيد كهوس: السنن الإلهية في السيرة النبوية، ٤٦،

ولمّا كانت هذه السنن الكونيّة الرّبّانية نظامًا مطّردًا يحكم سلوك البشر ونظام سائر الكونيّات، فإنّ اطّراد هذه السنن كفيل بمحصول العلم الملازم لها، وإدراك العظة والعبرة منها. دور المنهج السنني في تفعيل المعاني القرآنيّة

حثنا القرآن الكريم على ايلاء السنن الإلهية في القرآن عناية فائقة، وأمرنا بوضعها موضع الاعتبار والتنفيذ، فقال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد: ١٠].

وقد تولّت ثلّة من العلماء بيان آثار التفكير السنني، "فإنّ إرشاد الله إيانا إلى أنّ له في خلقه سننًا، يُوجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَجْعَلَ هَذِهِ السُّنَنَ عِلْمًا مِنَ الْعُلُومِ الْمُدَوَّنَةِ؛ لِنَسْتَدِيمَ مَا فِيهَا مِنَ الْهِدَايَةِ وَالْمَوْعِظَةِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِ؛ فَيَجِبُ عَلَى الْأُمَّةِ فِي مَجْمُوعِهَا أَنْ يَكُونَ فِيهَا قَوْمٌ يُبَيِّنُونَ لَهَا سُنَنَ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ كَمَا فَعَلُوا فِي غَيْرِ هَذَا الْعِلْمِ مِنَ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ الَّتِي أُرْسِدَ إِلَيْهَا الْقُرْآنُ بِالْإِجْمَالِ وَقَدْ بَيَّنَّهَا الْعُلَمَاءُ بِالتَّفْصِيلِ عَمَلًا بِإِرْشَادِهِ، كالتَّوْحِيدِ وَالْأُصُولِ وَالْفِقْهِ. وَالْعِلْمُ بِسُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ أَهَمِّ الْعُلُومِ وَأَنْفَعِهَا... وَلَكَ أَنْ تُسَمِّيَهُ عِلْمَ السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ أَوْ عِلْمَ الْإِجْتِمَاعِ أَوْ عِلْمَ السِّيَاسَةِ الدِّيْنِيَّةِ" (تفسير المنار: محمد رشيد رضا، ٤/١١٤-١١٥).

وعليه فإنّ الاعتبار بهذه السنن يحثّ كلّ متدبّر إلى الالتفات إلى الدّات وإصلاح أعطابها وآفاتها لأنّ التفكير السنني تفكير منهجي يبعدنا عن العشوائيّة والارتجال والصدفة، ويطوّر للمتأمل فيها ملكة الفهم عن الله، فيصبح في مأمن فكري من داء: استعجال التّائج والضيق بالاختلاف، بل يؤسّس التفكير السنني لفكر متجدد ومنفتح.

كما يبين د منير شفيق في كتابه (نظريات التغيير) أن هناك خلافاً تصورية في قراءة السيرة النبوية، بحيث يتم التركيز على الانتصار العسكري وإغفال الأبعاد الحضارية من ممارسة شورى وتخطيط ومراجعة، في مقابل الظلم والطغيان والفساد الإداري والمالي الذي كان فيه مثلاً الفرس والرومان؛ فالمسلمون لم ينتصروا لأنهم مسلمون فقط، ولكن لأن الطرف الآخر لم يكن مستحقاً للتصبر بمقتضى السنن الإلهية.

فكل ما خالف التفكير السني ليس بتفكير لأنه لا ينزل تحت غطاء القانون الرباني، ولعل أهم الأسباب التي أدت إلى غياب التفكير السني، هو التعامل مع التاريخ بوصفه قصصاً لا سنناً، أو أن يكون مردّ غيابه إلى الفهم الخاطئ المستوحى من القراءة الخاطئة للمجريات والوقائع التاريخية.

أبعاد سنة التكامل وتطبيقاتها

إنّ الإنسان هو المخلوق الذي أدار عليه القرآن الكلام، انطلاقاً من إيجاده وإيجاد الكون لأجله، والذي يترتب على وجوده جملة من العلاقات التي ينظم وفقها المجتمع الإنساني. ولما كان الكون يتسع لجميع الناس بكلّ اختلافاتهم، فإنّ هذا يستلزم إيجاد منظومة إنسانية يحدث فيها التفاعل الاجتماعي، الذي يُحوّل الاختلافات بين الناس إلى مصدر قوّة روحية ونهضة عقلية وثراء فكري.

أبعاد سنة التكامل

إنّ ما لفت انتباهنا أثناء استقراءنا للآيات السننية في القرآن الكريم، إخبار القرآن ضمناً عن سنة أقام الله عليها الحياة، وفطرة فطر الناس عليها؛ تسمى سنة التكامل، وهي سنة ماضية بمضى الحياة، لا تتبدل ولا تتغير، تجري على كلّ المخلوقات، مبيّنة تفاوتهم البيئي وتكاملهم الوظيفي، ولو ألغى الحق سبحانه قانون التفاوت البيئي الذي سنّه في خلقه، لم يخدم أحد أحداً ولم يصر أحد منهم مسخراً لغيره، فيفضي ذلك إلى خراب العالم وفساد نظام الدنيا" (الرازي: التفسير الكبير، ١٨٠، النسفي: مدارك التنزيل، ٢٧١/٣)

ولا جرم أن استمرارية العلاقات السليمة بين أطراف المجتمع يتطلب توافقاً في المبادئ الأساسية، والاتفاق على الأفكار العامة، وإن كان الاختلاف بدوره سنة كونية عامة

ومطرّدة إلا أنه لا يمنع الوصول إلى نقطة مشتركة في مُنتصف الطريق، واعتماد الحلول الوسط، فيأتي الاختلاف، إذن، ليغذي روح التّكامل بين المسلمين ليحقّق مصالح الجميع بلا إقصاء ولا تمييز.

وهذا ما يأمّله حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم حيث يقول: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد؛ إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسّهر والحمّى) (صحيح مسلم)، فالذي نتبيّنه من هذا الحديث أنّ الدّين الإسلامي لا تكتمل صورته وروحه إلا من خلال الحثّ على سيادة الألفة والرّحمة والمودّة بين المسلمين، فالحديث يشير إلى ضرورة تعظيم المسلم لحقوق أخيه المسلم وإيثار أخيه على نفسه، إيماناً منه أنّه لا يكتمل إيمان المرء حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه، لأنّ استقرار الفرد من استقرار الجماعة وسعادة الفرد من سعادة الجماعة.

وعليه فإنّ أوّل ما يتبادر للذهن حال الحديث عن التّكامل، ملامح وأبعاد لا بدّ من الوقوف عندها، مفادها أنّ المخلوقات بها نقص جبلي، فتجد كلّ مخلوق يحتاج إلى باقي المخلوقات في منظومته حتى يحقّق الوظائف التي بها معاشه وسعادته، فعلى الإنسان أن يتواضع لخالقه سبحانه، حيث يدرك نقصه واحتياجه لكلّ ما حوله ومن حوله. كما تأصّل هذه السّنة لعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان فتجعل قوامها التّعاون وليس العدا، وأنّ أساس العلاقة بين الإنسان والكون هو التّفاعل والصّلاح والتّكامل، فالصّراع طارئ، والتّكامل هو الأصل.

لذا فإنّ كلّ الآيات التي تحدّثت عن سنّة التّكامل تنبع من مشكاة واحدة وتصبّ في دلالة واحدة، وقد هدانا الله لاختيار سورة العصر أنموذجاً لأنها سورة كافية وافية دلّت على مبادئ هذه السّنة الكونيّة وغاياتها، وهذا ما سنتبينه في ثنايا المطلب الموالي.

تطبيق سنّة التّكامل على سورة العصر

لا يمكن الوصول إلى مغزى الحياة إلا من خلال رؤيتها من كلّ الزوايا والاتّجاهات، لذا كان لزاماً على الإنسان أن ينظر في وقائع الأمم السّابقة وسنن الله الجارية فيها التي تشكّل لنا صورة عن السلوك الاجتماعي الذي ساد في تلك الأمم سواء كان ذلك على

مستوى علاقات الأفراد قبل إرسال الرسل وبعدها ، فيأتي هنا ضرورة فقه السنن الإلهية، وحسن توظيفها لتحليل التراكيب الداخلية في المجتمعات، والوقوف على أهم الأسباب التي تؤدّي إلى العزلة الوجدانية، والانكماش الأخلاقي، والانكسار الحضاري.

وقبل الشروع في تحليل سورة العصر، تستوقفني عبارة عميقة، أجازها الله على لسان المفكر الجزائري المسلم الراحل الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله، حيث قال: " ليست المشكلة أن نعلم المسلم عقيدة هو يملكها، وإنما المهم أن نردّ إلى هذه العقيدة فاعليتها وقوتها الإيجابية وتأثيرها الاجتماعي، وفي كلمة واحدة: إنّ مشكلتنا ليست في أن نبرهن للمسلم على وجود الله بقدر ما هي في أن نُشعره بوجوده ونملأ به نفسه، بإعتباره مصدرا للطاقة". فلا يمكن أن نردّ إلى هذه العقيدة فاعليتها وقوتها، وأن تستشعر أرواحنا معية الله وتستغني به عن سواه، إلا بإعادة النظر في فقه تنزيل القرآن على الواقع حتى يعيش المسلم روح الدين فيترقى في طاعته من حال صورة العبادة إلى الإتيان بروح العبادة، ومن الالتزام بظاهر الشريعة إلى التحقق بالشريعة ظاهرا وباطنا.

وقد "أودع الله في هذه السورة الصغيرة، سورة العصر، ذات الآيات الثلاث منهجا كاملا للحياة البشرية كما يريد الإسلام. وتبرز معالم التصور الإيماني بحقيقته الكبيرة الشاملة في أوضح وأدق صورة. إنها تضع الدستور الإسلامي كله في كلمات قصار. وتصف الأمة المسلمة: حقيقتها ووظيفتها. في آية واحدة هي الآية الثالثة من السورة.. وهذا هو الإعجاز الذي لا يقدر عليه إلا الله". (سيد ابراهيم قطب في ظلال القرآن، ٦/٣٩٦٤)

قال تعالى: ﴿وَأَلَّعَصَ رِ (1) إِنَّ أَلَّ إِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِأَلَّ حَقٍّ وَتَوَّصَوْا بِأَلَّ صَبْرٍ (3)﴾ [العصر:١-٣]

فيأتي البيان الإلهي في هذه السورة ينصّ على "أنه على امتداد الزمان في جميع الأعصار، وامتداد الإنسان في جميع الأدهار، ليس هنالك إلا منهج واحد رابح، وطريق واحد ناج. هو ذلك المنهج الذي ترسم السورة حدوده، وهو هذا الطريق الذي تصف السورة معالمه. وكل ما وراء ذلك ضياع وخسار" (سيد ابراهيم قطب في ظلال القرآن، ٦/٣٩٦٤).

وقد بيّنت هذه السّورة الفئة المستثناة من الحسران، الذين لم ينحصر إيمانهم وطاقاتهم في حدود أنفسهم، بل كانوا يساهمون في نشر ذلك الخير إذ " أفادت صيغة التّواصي بالحقّ وبالصّبر أن يكون شأن حياة المؤمنين قائما على شيوع التّأمر بهما ديدنا لهم . وذلك يقتضي اتّصاف المؤمنين بإقامة الحقّ وصبرهم على المكاره في مصالح الإسلام وأمّته لما يقتضيه عرف التّاس من أن أحدا لا يوصي غيره بملازمة أمر إلاّ وهو يرى ذلك الأمر خليقا بالملازمة " (التّحرير والتّنوير: محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون، ٥٣٤/٣١).

ففي صيغة التّواصي إحياء لروح التّفاعل والتّكامل بين المسلمين، هذا، وقد ذكر الحقّ سبحانه أنّ المستثنى من الحسران هم الأصناف الأربعة الذين ذكرتهم الآية، وأنّ هذه السّورة قد لخصت دعائم هذا الدّين وقوامه، وأكّدت على ضرورة تفعيل سنّة التّكامل لتحقيق التّهضة الإسلاميّة والرّسوخ الدّيني "وهذا نهاية الكمال. فإنّ الكمال أن يكون الشّخص كاملا في نفسه، مكّملا لغيره. وكماله بإصلاح قوّته العلميّة والعملية، فصلاح القوّة العلميّة بالإيمان، وصلاح القوّة العمليّة بعمل الصّالحات، وتكميله غيره بتعليمه إياه وصبره عليه وتوصيته بالصّبر على العلم والعمل " (محاسن التّأويل محمد جمال الدّين القاسمي، دار إحياء الكتب العربيّة، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م، ط ١، ١٧/٦٢٥٠)، ففي تخصيص هذين التّوعين من التّواصي إشارة في الأوّل إلى "رتبة العبادة التي هي فعل ما يرضى به الله تعالى، والثّاني عن رتبة العبوديّة التي هي الرّضا بما فعل الله تعالى، فإنّ المراد بالصّبر ليس مجرد حبس النّفس عما تتشوّق إليه من فعل وترك؛ بل هو تلقّي ما ورد منه تعالى بالجميل والرّضا به ظاهرا وباطنا." (تفسير أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، دار إحياء التراث العربي، ١٩٧/٩).

وبناء على ما تقدّم، نتبيّن أنّ "التّواصي بالحقّ ضرورة. فالتهوؤ بالحقّ عسير. والمعوقات عن الحقّ كثيرة: هوى النّفس، ومنطق المصلحة، وتصورات البيئة. وطغيان الطّغاة، وظلم الظّلمة، وجور الجائرين.. والتّواصي تذكير وتشجيع وإشعار بالقربي في الهدف والغاية، والأخوة في العبء والأمانة. فهو مضاعفة لمجموع الاتّجاهات الفرديّة، إذ تتفاعل معا فتضاعف. تتضاعف بإحساس كلّ حارس للحقّ، أن معه غيره يوصيه ويشجّعه ويقف

معهُ ويحبّه ولا يخذله.. وهذا الدّين - وهو الحقّ - لا يقوم إلّا في حراسة جماعة متعاونة متواصية متكافلة متضامنة على هذا المثل" (سيد ابراهيم قطب في ظلال القرآن، ٦/٣٩٦٨). وعليه فإن إصلاح النفوس، وتغيير الإنسان المسلم من حالة الخراب الأخلاقي، و الغرق في أمراض القلوب إلى سعة الفضائل و الرحمة خطوة أولى صحيحة نحو تفعيل فقه التكامل بعد ذلك.

فسنّة التكامل من أثر رحمة الله بخلقه، " حيث جعلك الله مفضّلاً في خصلة وجعل غيرك مفضّلاً في خصال كثيرة، فأنت محتاج لغيرك فيما فضّل فيه، وهم محتاجون إليك فيما فضّلت فيه، ومن هنا يحدث التكامل في المجتمع، ولو أنّ واحداً منّا أصبح مجمعا للمواهب ما احتاج فينا أحد لأحد، ولتقطّعت بيننا العلاقات " (تفسير الشعراوي، ١٤/٨٤٤٢)، هذا يعني أنّ التشابه وعدم التفاضل يوّلد التكرار، والتكرار إقصاء للحاجة، والإقصاء إعدام للتسخير، وعدم التسخير إلغاء للتكامل وحسن الترابط بين الناس، وفي كلّ ذلك هدم لمهمّة الإنسان في هذه الحياة الدّنيا" (محمد الصادق بو علاق : علم السنن الإلهية، ٣٣٠).

وبعد النّظر في أقوال المفسّرين نأتي إلى محاولة تفعيل سنّة التكامل من خلال بيان بعض الخطوات العمليّة نحو التكامل الذي يجب تربية المسلمين عليه وبناء عقولهم على أسسه، وذلك من خلال:

إفشاء السّلام: يقول النّبي عليه الصلاة و السلام: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَلَا أَدْلِكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ، أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ» ، وواللافت للنظر أنّ هذا الحديث كان أوّل حديث بثّه النّبي عليه الصّلاة و السّلام في المدينة بعد هجرته إليها، وهذا دليل على أهمّيته في بناء المجتمع المسلم السّليم. تفعيل العمل بحديث رسول الله صلى الله عليه و سلم الذي يقول فيه: حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ. قِيلَ مَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: إِذَا لَقَيْتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللَّهَ فَشَمِّتْهُ، وَإِذَا مَرِضَ فَعُدَّهُ، وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ . « وقد يعتقد البعض أن هذه المسائل ثانوية وغير مؤثرة، و لو رجع إلى تفاصيل

القرون الأولى للبعثة المحمّديّة ودقّق فيها، لتبيّن له أنّ هذه الأخلاق كانت الأساس الذي قام عليه المجتمع المسلم.

فبالنّظر إلى هذين الشّاهدين من السّيرة، يتسّى لنا أن نطلق على هذه المرحلة الأولى من مراحل تفعيل سنّة التّكامل، بمرحلة التّأليف التي بها تتآلف النفوس والطّباع ويشيع بينها التّعاون والتّراحم، فالنفوس جُبلت على حبّ من أحسن إليها، ووقف بجانبها في السّراء والضّراء، فلا بدّ أن تترسّخ هذه المرحلة في المجتمعات حتّى تتماسك وتغدو كالبنيان المرصوص.

أمّا الخطوة الثّانية، فهي الدّعوة لدين الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وذلك بإعادة صلة النّاس بكتاب ربّها وبالسّيرة العطرة من خلال إحياء روح القرآن وروح السّيرة، فروح القرآن لا يكون بكثرة الحفظ ولا بحسن الصّوت ولا بقوة الاتقان، ولكن بنور يُقذف في القلب فتعمل بمقتضاه سائر الجوارح، وتنطمس بهذا النور أهواء النّفس العصيّة والوساوس الشّيطانيّة، وتستعيد هذه القلوب صلتها ووصلها بأحداث ووقائع السّيرة التّبويّة العطرة والتّعرف على مفاتيح وآليات الدّعوة إلى الله من خلال استقراء تاريخي لنماذج وأساليب الدّعوة في القرون الأولى للمسلمين. و مرحلة الدّعوة هذه يمكن هي أن نسمّيها مرحلة التّعريف بشرع الله القويم، بعد تهيئة القلوب في مرحلة التّأليف لاستقبال روح المعاني الإيمانيّة بالمحبّة والتّسليم.

أمّا الخطوة الثّالثة تتمّ عن طريق تكريس برامج وأنشطة مشتركة إحياء لروح التّكامل، من خلال اعتماد نظام الفريق، فلكلّ فريق في أي مجال جانب قوّة وجانب ضعف، والاعتراف بهذا النّقص فريضة شرعية، و ضرورة حياتيّة، لذا حثّت سورة العصر من خلال قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ﴾ على تفعيل سنّة التّكامل لجبر النّقص الجبلي الكامن في البشر.

وهذا التّكامل يكون في مجالات مختلفة، فبعد مرحلتي التّأليف والتّعريف، تتهيأ القلوب لاستقبال التّكاليف الدينيّة الحافظة لنظام الجماعة المسلمة، المصلحة لكلّ شؤونها دينيًّا ودنيويًّا. ومن الأمثلة على هذه المرحلة:

تكليف بعض الدارسين للقيام بأبحاث علمية تتظافر فيها الجهود العلمية المختلفة
بغية النهوض بالفكر الإسلامي إلى أعلى مستويات الوعي والفهم.
القيام بأعمال خيرية أو دعوية بعد تحديد المهام المسندة لكل فرد حتى يتكامل العمل
صورة وروحا.

الدعوة إلى تبادل الخبرات بين الأفراد أو المؤسسات، أو عقد دورات علمية أو ملتقيات
مشتركة لتطوير الملكات على المستويين الفكري والروحي.
دراسة المؤهلات النفسانية والجسدية والعلمية لأفراد الفريق واسناد المهام المناسبة
بحسب الاقتدارات المتاحة لكل فرد.

فحين تتظافر الجهود وتتكامل الأدوار، إحياء لسنة التكامل، تتوج هذه التكاليف
بنتائج دقيقة ومرضية نافعة للجماعة لما تحقق فيها من اتفاق المبادئ وانسجام الأفراد ووحدة
الهدف والمقصد.

وعليه يمكن تسمية هذه المرحلة بمرحلة التّكليف والتي يلتزم فيها المكلف بسائر
تعاليم الإسلام الظاهرة والباطنة دون التفات للشوائب والمعكرات التي قد تطرأ في طريق
النجاح والرقى والتّهوض الحضاري.

فكل من المراحل الثلاث التي أتيت على ذكرها، التأليف والتعريف والتكليف، من
شأنها أن تضاعف المقدرة الجماعية على التغيير والإصلاح، مما يبعث على مزيد الإحساس
بوحدة الهدف، وقوة الرابطة.

ومن هنا يتبين لنا الفهم العميق الذي أدركه صحابة الحبيب المصطفى صلى الله عليه
وسلم، وإيلائهم سورة العصر اهتماما خاصا، وتطبيقا عمليا، حيث "كان الرجلان من
الصّحابة إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة "والعصر" ثم يسلم أحدهما
على الآخر.. لقد كانا يتعاهدان على هذا الدستور الإلهي، يتعاهدان على الإيمان والصّلاح،
ويتعاهدان على التواصي بالحق والتواصي بالصبر. ويتعاهدان على أنهما حارسان لهذا
الدستور". (سيد ابراهيم قطب في ظلال القرآن، ٦/٣٩٧١)، إيماننا منهم بأنّ رأس مال هذه
الأمة وحدتها وصفاءها وثباتها على العهد والوعد إل أن تلقى بارئها.

خاتمة

إنّ استعمال القرآن الكريم لصيغ صرفية مختلفة يكسب الألفاظ القرآنية حمولة دلالية ممتدة، فصيغة المفاعلة، التي صيغ منها لفظ التواصي، وانبثاؤها في الكتاب العزيز أكبر دليل على عناية الإسلام بسلامة العلاقات البينية والحفاظ على روابط الأمة المحمدية التي قضى الله ألا أن خيريتها في وحدتها وتعلق هممتها بهم الأمة.

كما أنّ سنن الله تحكم أنظمة الكون الدقيقة والعظيمة فإنها تحكم أيضاً أنظمة الناس الكسبية والفطرية على مستوى الفرد والجماعات. إلا أنّ استدعاءها وحضورها الواقعي هو كسب إنسانيّ وفعل بشريّ، وهو ما يربّب المسؤولية على الإنسان في مدى التعاطي معها والاهتداء إليها والعمل بها.

إنّ سنّة التّكامل هي الغاية التي إذا ما سادت انضبطت وفقها قوانين الأمم وانسجمت معها حركة الحياة، ففقه التّكامل هو بناء عقلائيّ قبل أن يكون بناءً اجتماعياً، ومنظومةً فكريةً تُساهم في صناعة العقل الجمعي من أجل تحقيق التّكامل لا التماثل، فمن شأن هذه السنّة أن تساهم في ترسيخ دعائم وحدة الأمة والتأيي بها عن مزلق التفرّق والتشرذم والانتصار للنفس على حساب وحدة الجماعة وصفاء بينها.

جعل الله كلّ السنن الكونية مترابطة فيما بينها كالخرزات المنظومات في السلك، وهذا من كمال التدبير الإلهي في الخلق، حيث جعلها قائمة على تحقيق الروابط الوجودية وتعزيز العلاقات بين الكونيات.

إنّ سنّة التّكامل تمثّل منهجاً متكاملًا للتربية والصلاح وعمارة الأرض وإفشاء السلام.

لو ساد فقه التّكامل لساد فقه الاجتماع ولأحييت فينا روح الدين ولأصبح ديننا مفعلاً في حياتنا وهذا لا يتحقّق إلاّ مروراً بمراحل ثلاث: مرحلة التّأليف ثمّ مرحلة التعريف ثمّ مرحلة التّكليف.

المراجع

- عبد العزيز المجدوب : أفعال العباد في القرآن الكريم: ، دار سحنون، ط ١، ١٤٩٢هـ - ٢٠٠٨م
رشيد كهوس: السنن الإلهية في السيرة النبوية
محمد رشيد رضا: تفسير المنار
الفخر الرازي: التفسير الكبير
عبد الله التّسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل
صحيح مسلم
سيد ابراهيم قطب : ظلال القرآن
محمد الطاهر ابن عاشور: التحرير والتنوير، دار سحنون
محمد جمال الدين القاسمي: محاسن التأويل، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م،
ابو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم
، دار إحياء التراث العربي
تفسير الشعراوي
محمد الصادق بو علاق : علم السنن الإلهية